الموقف قول الخريت بن راشد، وهو أحد الذين خرجوا على الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بعد التحكيم: "أن علياً حكّم حكماً ورضي به، فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه، فقد رضيت أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه"[1].

والحقيقة أن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ لم يرض بالتحكيم إلاّ مكرها، ولم يوافق على قيام أبي موسى الأشعري بتمثيله إلاّ مضطراً، وقد عدّ تنازع الحكمين واتهام أبي موسى لعمرو بن العاص بالغدر والفجور فشلاً لعملية التحكيم، ومن ثم فهو في حل من الالتزام بنتيجة التحكيم[2].

في ضوء ما تقدم فقد حاول الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إعادة حشد أتباعه وتجنيدهم لاستئناف القتال مع أهل الشام، غير أن الذي منعه من المضي في تنفيذ هدفه هو عودة الخوارج لاستئناف نشاطهم وتحديهم لخلافته على أرض العراق، مما أجبره على أن يقدم الصراع معهم على الصرع مع أهل الشام[3]. لذا فإن من الضروري أن نقدم إستعراضاً موجزاً لنشأة الخوارج وتطور صراعهم مع الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ذلك لأن هذا الصراع كانت له آثار خطيرة على سياسة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ وحياته.

5- ظهور الخوارج وصراعهم مع الخليفة علي ﷺ:

يرجع ظهور الخوارج كما قدمنا إلى معركة صفين، حيث رفض قسم من أتباعه قبول التحكيم، وعدوا الموافقة على تحكيم الرجال في مسألة منازعة معاوية وإتباعه للخليفة علي بن أبي طالب ﷺ حقّه في الخلافة وخروجهم عن طاعته نوعًا من الشك في أحقية موقفهم في مقاتلة معاوية وحزبه تنفيذاً لأمر الله في هذا المجال. وقد لخصوا موقفهم هذا في الشعار الذي غدا علماً عليهم: "لا حكم إلاّ لله" فأطلق عليهم وصف المحكّمة لأنهم يدعون إلى تحكيم الله تعالى لا تحكيم الرجال[4].

وبعد رجوعهم من صفين لم يدخلوا الكوفة، وإنما نزلوا في منطقة تدعى حروراء خارجين بذلك عن طاعة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ فسموا الحرورية نسبة إلى هذا المكان كما سموا الخوارج لخروجهم على خليفتهم والجماعة. وقد أشير إلى أن هذا الموقف أوضح التمايز بينهم وبين أتباع الخليفة علي المخلصين. فقد أورد الطبري عن

(1) الطبري: تأريخ، ج 5، ص 125.
(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 77 – 78.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 82 – 83.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 57، 65 – 66، 72 – 73.

أبي مخنف قوله: "ولما قدم علي الكوفة وفارقته الخوارج وثبت إليه الشيعة فقالوا: في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت، فقالت الخوارج: إستبقتم أنتم أهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم عليا على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلاّ على كتاب الله عزّ وجل وسنة نبيه ﷺ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت"[1].

وقد ذكر أن ابن عباس دخل في مجادلات طويلة مع الخوارج من أجل إقناعهم بالتخلي عن موقفهم فلم يفلح[2]. ثم حاول الخليفة علي بن أبي طالب إستمالتهم إلى موقفه بعد تذكيرهم بأن قبوله التحكيم جاء بناء على إلحاحهم. فأقروا بأن ذلك كان كفراً منهم، وأنهم قد تابوا إلى الله تعالى منه، وأن عليه أن يتوب منه ويتخلى عن تنفيذه تعهده بإجراء التحكيم، كي يعودوا إلى مبايعته وطاعته. فرفض ذلك.. ثم أوضح لهم أن قبوله بتحكيم الرجال لا يعني التخلي عن حكم الله وحكم القرآن، بل هو في حقيقته تحكيم الرجال من أجل تفسير القرآن، فهذا القرآن "هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال"[3].

ويبدو أن الخوارج لم يقتنعوا بحجج الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بصورة تامة، وإنما وافقوا على مجاراته والعودة إلى الكوفة على أمل الضغط عليه في عدم الدخول في التحكيم، فلما فشلوا في تحقيق أهدافهم، وقام الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ بإرسال مبعوثه إلى مكان التحكيم كما أوضحنا ذلك آنفًا عادوا إلى معارضتهم من جديد، وأخذوا يشغبون عليه في المسجد[4]. فقد ذكر الطبري أن علي بن أبي طالب ﷺ قام يخطب فيهم في المسجد، فقال رجل من جانب المسجد: "لا حكم إلاّ لله، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يحكّمون، فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل، أما لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته"[5].

---

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص 64.
(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 64 – 65.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 66.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 72 – 73.
(5) المصدر نفسه، ج 5، ص 73.

لقد كان حريا بالخوارج أن يقبلوا عرض الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ فيبقوا في صفوف الجماعة، ولهم أن يحتفظوا برأيهم ويدافعوا عنه بالحجة والبرهان، ولكن التعصب الشديد لرأيهم حملهم على اتهام مخالفيهم بالرأي بالكفر، ودفعهم للخروج عن طاعة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ والتهيؤ لمقاتلته وسفك دماء المسلمين[1].

لقد ذهب بعض الباحثين إلى وصف الخوارج بالقراء الذين كرّسوا حياتهم لقراءة القرآن والعبادة[2]. غير أن المسألة الجديرة بالتحقيق هي مدى استيعاب هؤلاء الناس لتعاليم القرآن وروحه الحقيقية. لقد أشارت المصادر إلى أن معظم الخوارج الأوائل كانوا من "أعاريب بكر وتميم"[3] والأعراب بحكم ظروف حياتهم القاسية غير قادرين على التفقه في الدين وتكريس حياتهم لفهمه. لذا فقد قال القرآن عنهم: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[4]، كما قال عنهم: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[5].

وإذا كان من الصحيح القول أن هؤلاء الخوارج كانوا قد تركوا حياة الأعراب، واستقروا في البصرة والكوفة وسجلوا أنفسهم في ديوان الجند، ومن ثم فإن من التجني النظر إليهم وكأنهم أعراب جفاة[6] فإن من الصحيح أيضًا الإشارة إلى أن الفترة القصيرة التي أمضاها هؤلاء في الأمصار، وهم يحملون سلاحهم للجهاد لم تكن كافية لتغيير طريقة حياتهم وتفكيرهم، ومن ثم فقد حافظ هؤلاء على قيم الحياة البدوية بعد تغليفها ببعض المظاهر الإسلامية.

ثم إن الأمر الجدير بالمناقشة هو مدى الصلة بين مواقف الخوارج المتطرفة في رفض التحكيم، وبين الخوف من نتائجه التي قد يكون من بينها معاقبة قتلة عثمان ﷺ علما بأن بعض رؤوس الخوارج مثل حرقوص بن زهير كانوا ضالعين في عملية قتله[7].

يبدو مما تقدم أن فصل حركة الخوارج عن جذورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتفسيرها باعتبارها حركة مثالية دينية قامت بسبب اختلاف في فهم نص

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص 77 – 78.
(2) فلهوزن: الخوارج والشيعة، ص 14 – 22.
(3) الطبري: تأريخ، ج 5، ص 66.
(4) سورة التوبة، الآية 97.
(5) سورة الحجرات، الآية 49.
(6) فلهوزن: الخوارج والشيعة، ص 16.
(7) الطبري: تاريخ، ج 4، ص 488 – 489، ج 5، ص 72.

القرآن الكريم ليس بالأمر الدقيق من الناحية العلمية، وإنما الأقرب إلى الصحة التعامل معها على أساس أنها امتداد للصراع بين الحضارة والبداوة أو الصراع بين الاتجاه الإسلامي وبين الاتجاه القبلي[1].

لقد كان الخوارج يعبرون من خلال شعاراتهم عن عدم إدراكهم لفكرة الدولة، وضيقهم بالسلطة المركزية التي نشأت عن قيام دولة الإسلام وتوحيدها العرب في إطاره "ويبدو عدم إدراكهم لفكرة الدولة من صيحتهم المشهورة: لا حكم إلاّ لله، فعلق الخليفة علي بن أبي طالب قائلاً: كلمة حق يراد بها باطل، نعم أنه لا حكم إلاّ لله، ولكن هؤلاء يقولون لا أمرة إلاّ لله وأنه لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر، وكان أول إعلان عن وجهتهم في الحكم قولهم: الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزّ وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه احتجاج جذري على استئثار قريش بالسلطة. وهكذا تظهر في حركة الخوارج النزعة القبلية في عدم الخضوع للسلطة وللحكم المركزي، ويظهر في حركتهم السخط على قريش والتذمر من انفرادها بالخلافة"[2].

وهكذا فقد استقر رأي الخوارج على الانفصال عن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ومحاربته بعد أن رفض العودة عن المضي في إرسال ممثله إلى التحكيم. فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فحثهم على مغادرة الكوفة بقوله: "فأخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة"[3]، فوافقوه على رأيه وانتخبوه أميرًا عليهم وبايعوه في 10 شوال سنة 37 هـ فسار بهم حتى نزل منطقة النهروان، وكاتب أتباعهم في البصرة للالتحاق بهم[4]. فوافقوه على رأيه، وسار لمناصرته منهم خمسمائة رجل بقيادة مسعر بن فدكي التميمي[5]. فأصبح مجموع الخوارج المجتمعين في النهروان حوالي أربعة الآف رجل[6]. وبذلك لم يتجاوز عدد الخارجين هذه المرة عدد من خرجوا إلى حروراء، مما يدل على نجاح الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ في كسب من تبقى منهم إلى جانبه.

---

(1) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 59 – 60.
(2) المرجع نفسه، ص 60.
(3) الطبري: تاريخ، ج 5، ص 74.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 75.
(5) المصدر نفسه، ج 5، ص 76 – 77.
(6) المصدر نفسه، ج 5، ص 86.

وبعد فشل التحكيم كتب إليهم الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ يدعوهم إلى الانضمام إليه في محاربة أهل الشام، فرفضوا دعوته، وكتبوا إليه: "أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلاّ فقد نابذناك على سواء أن الله لا يحب الخائنين. فلما قرأ كتابهم آيس منهم، فرأى أن يدعهم ويمضي بالناس إلى أهل الشام حتى يلقاهم فيناجزهم"[1].

وبينما كان الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ يحشد أتباعه لمقاتلة أهل الشام جاءته الأخبار بأن الخوارج أخذوا يتعرضون لمن يخالفهم بالرأي بالقتل، فقتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ وزوجته بطريقة بشعة وقتلوا نسوة آخرين. فآلم ذلك الخليفة عليا ﷺ وجعل أتباعه يلحون عليه بأن يتوجه لقتال الخوارج قبل أن يتوجه لمقاتلة أهل الشام. غير أن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ لم يتخذ القرار بمقاتلتهم إلاّ بعد أن رفضوا تسليمه الجناة لمعاقبتهم وزادوا على ذلك بقتلهم مبعوثه الذي أرسله إليهم[2]. وبعثوا إليه قائلين: "كلنا قتلتهم، كلنا نستحل دماءهم ودماءكم"[3].

لقد توجّه الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ لمحاربتهم على رأس جيش كبير، ولم يبدأهم القتال إلاّ بعد أن منح الأمان لكل من يحب أن ينصرف عن مقاتلته ما لم يكن قد ارتكب جناية قتال فانصرف من الخوارج حوالي ألف ومائتي رجل، فلم يبق في ساحة المعركة منهم سوى ألفين وثمانمائة رجل، أصروا على مقاتلته[4]. ولتفوق جيش الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ الكبير عليهم، وذلك لأنه كان أعده لمحاربة أهل الشام فقد تمكن من القضاء عليهم بيسر وسهولة "فأهمدوا في الساعة"[5]. ولم يبق منهم سوى أربعمائة رجل كانوا قد سقطوا جرحى في أثناء القتال، فأمر بهم الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء"[6].

وبذلك تم توجيه ضربة ساحقة إلى حركة الخوارج، ولم يعد بإمكانها تحدي الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ وجها لوجه، ولكن كثيرًا من عناصرها واصلت عملها

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص 87.
(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 81 – 82.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 83.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 85 – 86.
(5) المصدر نفسه، ج 5، ص 86.
(6) المصدر نفسه، ج 5، ص 88.